الجواهري

ذاكـــــرة الـــعـــراق

الغلاف بريشة الفنان علي رضا سعيد

المدى

من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة

المدى

للإعلام والثقافة والفنون

www.almadasupplements.com

"21عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

رئيس مجلس الادارة

رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (5955) السنة الثانية والعشرون

الخميس (31) تموز 2025

الجواهري.. شعـر و"مقامات"

رواء الجصاني

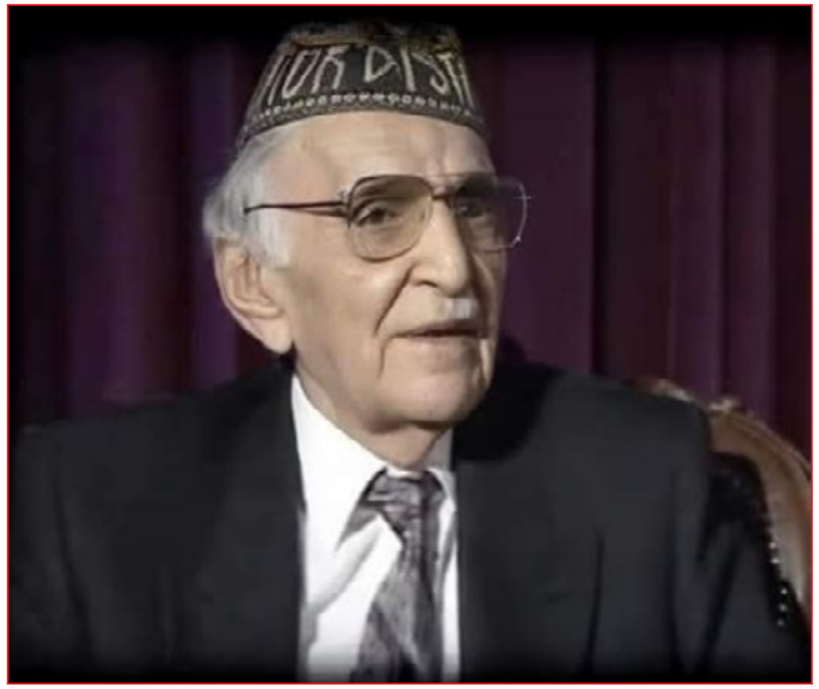

يحسبُ الدارسون والمتابعون بـان ديوان محمد مهدي الجواهـري (١٨٩٩-١٩٩٧) ليس حافظة قصائد وشعر وحسب، بل سجلا لوقائع واجواء تغطي نحو سبعة عقـود من الحيـاة الشخصية، والسيرة الذاتية، الى جانب من (بل وبتشابك مع) تاريخ البلاد العراقية الحديث، بأتراحه وأفراحه، الثقافية والاجتماعيـة والسياسيـة، ومـا يتفرع عنها من محاور و اتجاهات..

وحـين نوثـق في هـذه الكتابـة عـن قصائـد و "مقامات" الجواهري في حواضر ومدن العراق، انما يصحب ذلك العديد من المؤشرات الحاضرة وضوحـاً او ضمنـاً، برغم اننـا لم نفصل الا قليلا في الحصـر والتعـداد والتاشـير. وبخلافـه فأن الأمـر يتطلب تفاصيـل كثيرة تسبق نظـم ونشر القصيـدة، ومناسبتهـا ومكانهـا وزمانها وما الى ذلـك، وهـذا ما يحتـاج لمساحـات كتابـة واسعة، وجهدا اوسع، ليس في غاية وهدف هذا التوثيق، الان علـى الاقل. ومـع ذلك فلربمـا ستوفر بضعة خلاصات في الخاتمة ما يفيد على تلكم الطريق..

وفي التالي القسم الاول من قسمين:

١.بين النجـف وبغداد

في النجف، مدينـة الفقه والادب، ولد الجواهري ونشـأ ويفـعَ، وتمترس، علـى مـدى ربـع قرن، لينطلـق منهـا الى بغـداد.. وقـد بقيَ افتخـاره بـ "نجفيتـه" يرافقـه تاريـخ وزيـارات وذكريات، موثقا لمدينتـه ومتحدثا عنهـا في مختلف مراحل حياتـه. وعلـى مـا نـدري فـأن زيارتـه الاخيـرة الى النجـف كانـت عـام ١٩٧٥ خـلال حضـوره احتفاء نظمته علـى شرفـه جمعية الرابطة الادبية بمناسبـة منحه جائـزة "لوتس" الدولية لادباء اسيـا وافريقيـا. والقى هنـاك – من بـين ابرز ما القـى– ابيات مـن دالية شهيرة بعنـوان "ازح عن صدرك الزبـدا" وكانت جديدة لم تكتمل بعد.. اما في مفتتـح الاحتفـاء فقد القى بعضَ شكر عجول للمضيفيـن والحاضرين الذي جـاء عددهم سابقة في كثرتـه وتنوعـه، كمـا تحـدث اكثر مـن شاهد عيـان:

مقـامي بينكمُ شكرٌ، ويومي عندكمُ عمرٌ..
سيصلحُ فيكمُ الشعرُ، إذا لم يصلح العذرُ
.. كمـا مـن المناسـب ان نشير هنـا ايضـا الى "الكوفة" – وهي شقيقة النجف، وتتكامل معها– وكم تغنى بها الجواهري شعرا ونثرا، ومن بينها داليتـه العصماءعام ١٩٦٩ والموسومـة: (يا أبن الفراتـين) حـين قـال مخاطبـا المتنبـي "صديقه" و "جـاره" و"لصـق داره" كمـا كان يصفـه مرات عديدة، حين يتطرق لذكره:

أنا ابن "كوفتك" الحمراء لي طنبٌ، بها، وإن طاحَ من أركانها عمدُ
جـوار كوخك لا مـاءٌ ولا شجرٌ، ولصـق روحك لا مالٌ، ولا صفدُ
ولا شكاةٌ أبثكمو السيفُ منجردا، لا يخلق السيف إلا وهو منجردُ

... امـا بغـداد – مدينـة الجـواهري التاليـة بعد النجـف – حيـث أقام فيهـا وثبت وتمكـن وشاع، منـذ اواخـر العشرينـات الماضيـة، خائضـا فيها غمـار الوظيفـة والصحافـة والسياسـة، وقبل كل هـذا وذلك: الشعـر والشعر، وعلـى امتداد عقود. وكان اخـر حضـور لـه في بغـداد مطلـع العـام ١٩٨٠ ليغـادر– بعـد اشتـداد الوضـع في البـلاد مأسـيا وارهابـا وعسفا، في ظـل السلطة البعثيـة الحاكمـة– وليغترب منذ ذلك الحـين الى الخـارج، متنصافـا بـراغ، ودمشق الذي رحل فيها الى عالم الخلود بتاريخ ١٩٩٧.٧.٢٧..

امـا مـا كتبه شعـرا عـن بغـداد، فكثيـر كثيـر فـ" لهـا الله مـا أبهى، وجـلة حولها، تلفّ كمـا التفّ السـوارُ علـى الزنـد".. وقـد ضم الديـوان العامر في حـب بغداد، خمس مغنيّات، ونحـو ٣٠ ذكر لها في قصائد مختلفة، بـين التغزل بها والتأمل فيها، والسعي لأستنهاضها.

٢. سامراء.. وساعة مع البحتري / ١٩٢٩

يـتردد الجواهـري، ويتنقـل كمـا هو عهـده، الى هذه المدينـة والبلدة العراقيـة او تلك، تغييرا في الاجواء، واستكشافـا واستلهامـا، وبدون حدود. ومن بين اوائل تلـك الاماكن والمدن كانت سامراء التي كتب عنها عـام ١٩٢٩ عينية وصفية بعنوان (ساعة مـع البحتري في سامـراء).. ثم اوحت له المدينـة العريقة، بعد زيارة أخـرى لها عام ١٩٣٢ فقال عنها في مطولة بسبعة وسبعين بيتا:

خُلِدْتِ سامراءُ، لم أوصلكِ من، فضلٍ، حشدتِ عليّ غير قليله

يا فرحـة القلب الـذي لم تتركي، أثـراً للاعج همه ودخيله

ولقـد غلوتِ فكم بقلبـي خاطرٌ، عجـزت معاني الشعر عن تمثيله

٣. في الرستمية.. وعن القرية العراقية / ١٩٣٢

لاسباب خاصـة وشخصيـة، يتوسط الجواهري عنـد اصدقـاء لـه في وزارة المعـارف عـام ١٩٣٦ طالبا نقله من مدرس في النجف، الى دار المعلمين الريفيـة في ضاحيـة (الرستمية) على حدود بغداد العاصمـة، وهي منطقة مزهرة خضراء، وقد نظم هناك خلال فترة عمله قصيدة وصفية جاء فيها:

كم في الطبيعة من مَعنى يُضيّعُهُ، على القراطيس نقصٌ في التعابير

هنـا الطبيعـة نَاجتني معبّـرَةً، عـن حسنها بأغاريد العصافير

وبالحفيـف مـن الأشجار منطلقـاً، عَبِـرٌ النسيم وفي نفح الأزاهير

.. كمـا نشير – للتوثيق ايضا– الى ان الجواهري كان قد نشر في العام ذاته (١٩٣٢) بائية، وصفية، عن بعض ملامح الريف في قرى، وبلدات فراتية، عراقية، زارهـا سريعا حينا، او قضى فيها بضعة ايام وليال، ومن ابياتها:

للقُريّـات عـالمٌ مُستقـلٌ، هـو عـن عـالمٍ سواه غريبُ

يتساوى غروبُهم وركودُ النفس منهم وفجرُهم والهُبوب

كطيـور السمـاء هَمّهُمُ الأوحـدُ زرعٌ يرعَوْنـه وحبوبُ

٤. في الحلة عام ١٩٣٥

تعود علاقة الجواهـري بالحلة واهلها منذ فتوته وشبابـه: زيـارات وعلاقات، ومدرسا في معاهد تعليمها، خلال النصـف الاول من ثلاثينات القرن الماضـي، اضافـة لوشائج صداقـة مـع اعيانها وشخصياتهـا الثقافية، ولسنـوات مديدة.. وفي عام ١٩٣٥ يخص الحلـة شعرا، حين نظم شبابها حفـلا تكريميـا لـه، فيـرد لهم التحيـة بأجمل منها، جاءت في قصيدة بأكثر من خمسين بيتا، شملت ايضا بعض تنوير، ووقفات تأريخية موجزة:

أبنـاءَ بابلَ للاشعار عندكمُ، عمـارة لم يشيّد مثلها بان

ودولـةٌ برجال الشعـر زاهرةٌ، معمـورةٌ بمقاطيع واوزان..

هنـا مَشَـى الفـذّ "بانيبـالُ" مُزدَهيـاً، في موكبٍ بغُواة الفنّ مُزدان..

مـنْ هاهنـا كان تحضيـرٌ لأنظمـة، في المشرقـين وتمهيدٌ لأديان..

هنا "حمورابـي" سنّ العـدلَ معتمداً، به على حفظ أفراد وعمران

٥/ "بنـت أرسطاليس" فـي مدينـة "الحـيّ" عام١٩٤٧

كثيرا ما كان الجواهري يشير في الحوارات التي أجريت معـه، انـه كثيرا مـا يغتنم هـذه المناسبة او تلـك لبث الشعر، شكـوى او تنويرا، او تأكيدا علـى هـذا الموقف وغيـره.. وهكذا جـاءت فرصة افتتـاح اول ثانويـة في مدينة (الحـي) بمحافظة واسط (لـواء الكـوت حينها) عـام ١٩٤٧ فيدعى لتلـك المناسبة، مع وجـوه وشخصيـات سياسية واجتماعيـة رفيعـة، ويلقـي داليـة مطولـة شملت شؤونا ورؤى ثقافيـة وتنويرية وسواهـا.. ومن ابياتها:

يابنـتَ (رسطاليسَ) لُحـتِ (بواسـطٍ) فَنزلـت "حيّاً" بالصبابة حاشدا

خَصـبَ الشُعـور وسَتحمَدين مولّهـاً، مـن أهله، ومُغازِلاً، ومُواودا..

وأذلّ خُلـقَ اللـهِ في بَلَـدٍ طغـت، فيـه الرزايا من يكونُ محايدا

٦. كربلاء.. و "امنت بالحسينْ" عام١٩٤٧

مـن اشهـر مـا يُوثـق عـن الجواهـري وكربلاء، عصمـاؤه: "امنـت بالحسـين" عـام ١٩٤٧ التي فاضت بالتعبير عن المواقـف والمفاهيم الطافحة بالإباء والشموخ، والمجدة للفداء والتضحيات، كما هي الحال في فرائد جواهرية عديدة (٢) وان اختلفت في الصور والاستعارة. وقد القيت تلكم العينيـة المبهـرة في الصحن الحسيني، بالمدينة المقدسـة، احيـاء لذكرى مأثـرة الطـف، بحضور جمـع مـن الشخصيـات البـارزة، وحشـد مـن الجموع، وجاء مطلعها:

فـداء للمثـواك مـن مضجـعٍ ... تنـوّر بـالابلـج الأروع

ورعيـاً ليومك يـوم"الطفوف"... وسقياً لأرضك من مصرع

تعاليتَ مِنْ مُفزِع للمحتوفِ ... وبورك قبرك من مُفزِع

٧. في (علي الغربي) عام ١٩٥٥

مخاصمـا وغاضبا، ومهضومـا، يلجأ الجواهري عـام ١٩٥٥ الى فضـاء ريفي في اطـراف مدينـة (علـي الغربي) بمحافظـة ميسان (لـواء العمارة في حينهـا) لـ "يمتهـن! " الزراعـة هـذه المـرة، بعـد انشغالاتـه الاخـرى في الشعـر والوظيفـة الحكوميـة، والصحافـة والسياسـة وغيرهـن عديـد.. وقـد اوحـت لـه الطبيعـة، واحـدى الاستضافـات الحميمـة، والاجـواء الانسانيـة، نونيـة مطولـة بمئة وتسعـة ابيـات (وجدانية – وصفيـة، فلسفيـة) موسومة بـ" أم عوف" ومن ابياتها:

جئنـا مغانيكِ نُسَـاكاً يُبرّحهمْ، لُقيـا حبيبٍ أقاموا حُبّه دينا

ولاءَمتنـا شِعابٌ منكِ طاهـرةٌ، كما تضمّ المحاريبُ المصلّينا

لم ألفَ أحفلَ منها وهي مُوحشةٌ، بالمؤنسات.. ولا أزهى مِيادينا

ولا أدقّ بيانـاً مـن مجاهلِهـا، ولا أرقّ لما توحيه تبيّينا

٨.في "مربد" البصرة، عام ١٩٦٩

و"البصرة، البصـرة، وكفـى" بحسـب ايجـاز الجواهـري في وصـف ثغـر العـراق، خـلال مجالسـه.. زارهـا وتـردد عليهـا، وعمـل فيهـا في الثلاثينـات الماضيـة مدرسـا في ثانوياتها أشهرا قليلـة، ولـه في تلكـم الفيحـاء علاقـات وصداقات متعـددة مـع مثقفـين وشخصيات بـارزة من اهل المدينـة او المقيمـين فيهـا.. اما الحـدث الابرز بين البصرة و الجواهري، فذلك الذي حدث عام ١٩٦٩ خـلال الـدورة الاولى لمهرجـان "المربد" الشعري، حـين هرعت جمـوع بصرواية حاشـدة لأستقبال شاعر الوطن القادم اليهـا من بغداد بالقطار. وقد تكـرر الحشد الجماهيري الكثيـف حين كان يلقي قصيـدة جديدة –ذاع صيتهـا لاحقا– امام حضور المهرجان و المشاركين فيه، وجاء مطلعها:..

يـا "ابـن الفراتيـن" قد أصغى لك البلـدُ، زَعْماً بأنك فيه الصادقُ الغَرِدُ..

ما بين جنبيكَ نبعٌ لا قرارَ له، من المطامح يستسقي ويَرتفد..

كأن نفسَك بُقيا أنفس شَقِيت، وكلّ ذنبٍ ذويها أنهم وُجِدوا

وأنهـم حلبوا الأيام أضرعها، حتـى إذا محضتهم دَرّها زَهِدوا"..

٩. في ربـوع كردستـان وعنهـا.. بـدءا مـن عـام ١٩٦٣

كان الجواهـري منسجمـا مـع الذات حـين انحاز دائمـا، ودون مواربـة، في حبـه الكـرد، واهـل كردستـان عموما، ودعـم طموحاتهـم، وحقوقهم المشروعـة.. امـا ايجـاز ذلـك الحـب والانحيـاز فـلا نرى أنـه يحتاج لمزيد مـن الدلالـة والاضافة والشرح اذا ما اقتبسنا بضعة ابيات وحسب، من ميميتـه المطولـة الفريدة عـام ١٩٦٣ الموسومة " كردستان... موطـن الابطال" ذات المئة والثمانية ابيات، ومنها:

قلبـي لكردستـان يُهدى والـدم، ولقـد يجـود بأصغريـه المعْـدم..

تلكم هديـة مستميـت مغـرم انـا بالمضحـى والضحيـة مغـرم..

نفسي الفـداءُ لعبقريّ ثائر يهـبُ الحياة كأنّه لا يفهَمُ

سلّـم علـى الجبـل الأشم وأهلـه ولأنت تعـرف عن بنيه من هُمُ

.. ومما نضيفه في هـذا السـرد، ان الجواهري قـد شـارك في النصف الاول مـن سبعينات القرن الماضـي في مهرجـان احتفـاء واستـذكار للشاعر الكردي الكبـير (بيره مرد) ونذلـك في السليمانية علـى رأسـ وفد من الادبـاء العراقيـين البارزين، قدموا من بغداد للمشاركة في تلك الفعالية (٣)..

١٠. في الموصل– ام الربيعين عام ١٩٨٠

تستقبل جامعة الموصل الجواهري ضيف شرف علـى مهرجانها السنوي، مطلع عـام ١٩٨٠ وتعد لـه برنامجـا يستقيـم مـع مكانـة الشاعـر الكبير والاحتفـاء به، وبحضور ومشاركة اعلام بارزين من الاكاديميين واساتذة اللغة والادب (٤).. ومما شمله برنامج الزيـارة جولة حرة وسط الموصل، استقبل به الجواهري بترحاب وحفاوة بالغة من قبـل بنات وابنـاء المدينـة العريقة.. ومـن ابيات قصيدته في حفل الافتتاح:

"أم الربيعـين" يـا من فُقت حسنهمـا، بثالث من شباب مُشرق خَضِل

واعٍ تَلقـفَ من وحـي الوعاة لهُ، ما شاء من سيّرٍ جُمَلي، ومن مثل..

أمُّ الثغـور التـي ناغـى ملاعبهـا، رأد الضُحـى إذ رُبوع الشرق في الطفل

يـا موصـل العرق من شرقٍ تمد بـه، للغرب حبلا بعرق منهُ متصلِ

×××

أخيـرا.. ثمة الكثير من المدن والبلدات العراقية التـي زارها الجواهري الكبير، بدعوات رسمية، او اجتماعيـة، او عائليـة، ولم نوثـق لها في هذه الكتابـة التي اردنـا ان يكون الشعـر ذا صلة بها، بذلك القدر او هذا. ومن بين تلكم المدن: الناصرية (وعمـل فيهـا مدرسـا لفـترة قصيـرة، اواسـط الثلاثينـات الماضيـة) ثـم الديوانيـة، بعقوبـة، الكوت، هيت..

كمـا ندعـي ايضـا ضـرورة التوكيـد مـرة ثانيـة بـأن مـا جاءت بـه الفقـرات السابقة ليس سوى مواجيـز عن "مقامـات" الجواهـري، وقصائده، في جمع مـن حواضر العـراق ومدنـه. ونكرر ما سبقـت الاشارة اليه بأن هنـاك لكل مقام وقصيدة تفاصيـل واحداث مرافقة، توضح وترسخ حقيقة ما "زعمَ" بـه الجواهري ذات يوم من عام ١٩٥٧ وكان لإجئا سياسيا في سوريا، حين قال مخـتتما قصيدته "في ذكرى المالكي" ذات المئة والثمانية والثلاثين بيتا:

أنـا العراق لساني قلبه ودمـي فراته، وكياني منه أشطارُ

– كتابـة وتوثيق: رواء الجصـاني، رئيس مركز الجواهري الثقافي..

– اللوحـة الاولى للفنان مصطفى محمود، تحمل بيتا شهيرا للجواهري نصه:

""أنـا العراق لساني قلبـهُ ودمي فراتهُ، وكياني دَرّها زَهدوا"..

– اللوحة الثانية للفنان علاء جمعة/ ٢٠١٩

احالات وهوامش

× ملاحظـة وتوكيـد: جميـع مـا تم التوثيـق لـه في هـذا البحـث، اعتمـد بالأسـاس علـى ديـوان الجواهـري، وجـزأي ذكرياتـه، اضافـة الى معايشات ومعلومات، ووثائق شخصية للكاتب..

×× لم تتوقـف هـذه المـادة التوثيقيـة الاشـارة او التأشـير لعلاقـات الجواهـري، وصلاتـه، مع العشـرات من الشخصيات العامـة والوجـوه السياسـية والاجتماعيـة والادبية، في الحواضر والمـدن التـي زارهـا او اقـام فيهـا، ونـلك تجنبا للأطالـة، وعلى ان يسعى الكاتب الى توثيق آخر، معنى بتلكم العلاقات والصلات، في فترة قادمة..

١/ تفاصيـل في بحـث موسوم (بغـداد في ذاكرة الجواهـري – صحيفـة الرأي) للاستـاذ يوسف بكّار منشـور على شبكـة الانترنيـت http://html.56710٦/alrai.com/article

٢/ ومـن بينهـا، مثـلا، قصائده عـن "الوثبـة" العراقيـة عام ١٩٤٨ ولامية "سواستبول" عام ١٩٤٢ وقصيـدة "سلامـا.. الى اطياف الشهداء الخالديـن" عـام ١٩٦٣ "وبائية "الفـداء والدم" عام ١٩٦٨ وغيرهن عديد عديد..

٣/ رافـق الجواهـري في زيـارة السليمانيـة: زوجته آمنة، وأخته نبيهة..

٤/ صاحـب الجواهـري في الطريـق مـن بغـداد الى الموصـل: د. مهدي المخزومي، ود. علي جواد الطاهر..

بوشكين والجواهري

د. ضياء نافع

تابعت قبل ايام قليلة اخبار وصور افتتاح بيت الجواهري وتحويله الى متحف ادبي رشيق ، و هـو البيت المتواضع الذي يقع بمحلـة القادسية في بغـداد ، والـذي كنـت عدة مـرّات في ضيافته واعرفـه حق المعرفـة ، وكم فرحت بتلـك الاخبار (رغم اننا جميعا غارقون في بحر الاحزان(.

وقـد ذكّرتنـي هـذه الاخبـار بحدثـيْن اثنـين في مسيرة حياتي ، يرتبطان بالجواهري وبوشكين معـا ، وعلـى الرغم مـن انها بسيطة جـدا ، الا ان بعض الاصدقاء (الذين يعرفون تفاصيلها) قالوا لي ، ان هذه الاحـداث الطريفة تستحق ان تكون ضمـن الوثائق الكثيـرة عن الجواهـري والادب الروسـي خصوصـا ، وروسيا عمومـا ، وها انا ذا اسجّلها واهديها لهم ، وكذلـك اهديها لكل من يـرى ، ان الجواهـري هـو بوشكين العـراق من حيث المكانـة الطليعيـة في قمة الشعـر ببلديهما ، ومـن حيث الاهميـة الفكريـة وقيمتها في تاريخ الادب الروسـي والعربـي ، ورغـم كل الخصائص والسمـات الفنيـة المتباينـة جـدا لكليهمـا و الاختلافات الجوهرية الهائلة بينهما .

الحـدث الاول جـرى في بداية سبعينيـات القرن العشرين ببغداد ، اذ وصل أنـذاك وفد سوفيتي كبـير برئاسـة نائـب رئيس جمهوريـة ارمينيا السوفيتيـة ، وكان الوفد يضـمّ عشرات الفنانيْن والفنانـات والمستشرقيْن السوفيـت ، وقد طلبت منـيّ وزارة الثقافـة والاعـلام ان اكـون مترجما للوفـد ، فوافقت بـكل سـرور ، وكان في برنامج الزيـارة حفـل ضخـم في السفـارة السوفيتيـة ببغـداد ، وكان الجواهري من جملة الشخصيات العراقيـة البـارزة المدعـوة لذلـك الحفـل ، وقـد حضـر الجواهـري بأناقتـه المعروفـة الجميلة ، و(عرقجينـه!) الكردستـاني المتميّـز علـى رأسه ، وخصـلات شعـره الاشيـب وهـي (تتطايـر!) يمينـا ويسـارا ، واستقبلـه السفـير السوفيتـي بحفـاوة كبـيرة ، وطلب منـه – بعد فتـرة – ان يلقي للضيـوف بعض اشعـاره ، وهكـذا وقف الجواهـري بقامته الرشيقة شامخـا – كعادتـه – في القاعـة ، وألقى (بصوتـه الرخيـم وطريقته الفنية وحركات يديه) بعض الابيات من قصيدته المشهورة عن سواستبول –

يا سواسبول سلام ...لا يذل مجدك ذام ...يذهب الدهر ويبقى ... من تفانيك نظام ...الخ ..الخ

وصفّق لـه الحاضرون (من عراقيـين وسوفيت) باعجـاب وحماس كبيريـن ، وطلبـوا منـيّ ، باعتبـاري المترجـم للوفـد ، ان (الترجـم !!) لهـم القصيـدة ، فوقفت امامهم و طرحت عليهم سؤالا بالروسية ، وهو – لـو ان بوشكين يلقي قصيدة له امامكم ، فهل يقدر المترجم ان يترجمها الى لغة اخرى بشكل فوري كما تطلبون منّي الان ؟ ضحك الجميـع وهم يقولون – طبعـا لا يقدر ، فقلت لهم ، وانـا ايضا لا اقدر ان اترجم قصيدة الجواهري ، فهـو بوشكـين العـراق والعالم العربـي ، وانما استطيـع ان احدثكم عـن مواضيعها ومضامينها وبعض صورها الفنية ليس الا ، وهذا ما حدث ، ثم ذهبت الى الجواهري وهمست في اذنه بايجاز حـول ذلك ، وقلت لـه ، انني أسميتـه – بوشكين العراق والعالم العربي ، فانتعش الجواهري جدا لهذه التسمية (مثل الطاووس ، كما اخبرني فيما بعد احد الحاضرين في الحفل آنذاك) ، خصوصا ان الجواهـري كان محاطـا بالفنانات الروسيات ، وهـي مسألة حسّاسة جـدا (لبوشكين العراق!) ونقطة ضعفه ....

الحـدث الثاني كان في مدينـة فارونش الروسية عام ٢٠٠٩ ، عندما قـام مركز الدراسات العراقية – الروسيـة في جامعـة فارونش الحكوميـة بافتتـاح التمثـال النصفـي للجواهـري ، والذي كان ولايـزال التمثـال الوحيـد خـارج العـراق للجواهري ، وقد ذكرت في كلمتي ، التي القيتها في حفـل الافتتاح ، باعتباري مدير المركز المذكور (المركز الـذي اقترح فكرة اقامـة التمثال وحققها فعـلا رغـم كل الصعوبـات) ، ان هـذا التمثـال هدية من رئيس دولة العـراق (وكان أنذاك جلال الطالبـاني) الى جامعـة فارونش الروسية ، لأن الجواهـري هـو رمز العـراق ، وان الاعراف الدبلوماسية حول المعاملـة بالمثل تقتضي الان ، ان يقـدّم رئيس دولـة روسيا الاتحاديـة بالمقابل هـدية لتمثـال بوشكـين الى جامعـة بغـداد ، لان بوشكـين رمـز روسيـا ، مثلمـا الجواهـري رمز العـراق ، وقد استطاع مركـز الدراسات العراقية – الروسيـة في جامعـة فارونش والعالم العربـي ، وانا اسجّلهـا واهديهـا لهم ، وكذلـك اهديها لكل من يـرى ، ان الجواهـري هـو بوشكين العـراق من حيث المكانـة الطليعيـة في قمة الشعـر ببلديهما ، ومـن حيث الاهميـة الفكريـة وقيمتها في تاريخ الادب الروسـي والعربـي ، ورغـم كل الخصائص والسمـات الفنيـة المتباينـة جـدا لكليهمـا و الاختلافات الجوهرية الهائلة بينهما .

الحـدث الاول جـرى في بداية سبعينيـات القرن العشرين ببغداد ، اذ وصل أنـذاك وفد سوفيتي كبـير برئاسـة نائـب رئيس جمهوريـة ارمينيا السوفيتيـة ، وكان الوفد يضـمّ عشرات الفنانيْن والفنانـات والمستشرقيْن السوفيـت ، وقد طلبت منـيّ وزارة الثقافـة والاعـلام ان اكـون مترجما للوفـد ، فوافقت بـكل سـرور ، وكان في برنامج الزيـارة حفـل ضخـم في السفـارة السوفيتيـة ببغـداد ، وكان الجواهري من جملة الشخصيات العراقيـة البـارزة المدعـوة لذلـك الحفـل ، وقـد حضـر الجواهـري بأناقتـه المعروفـة الجميلة ، و(عرقجينـه!) الكردستـاني المتميّـز علـى رأسه ، وخصـلات شعـره الاشيـب وهـي (تتطايـر!) يمينـا ويسـارا ، واستقبلـه السفـير السوفيتـي بحفـاوة كبـيرة ، وطلب منـه – بعد فتـرة – ان يلقي للضيـوف بعض اشعـاره ، وهكـذا وقف الجواهـري بقامته الرشيقة شامخـا – كعادتـه – في القاعـة ، وألقى (بصوتـه الرخيـم وطريقته الفنية وحركات يديه) بعض الابيات من قصيدته المشهورة عن سواستبول –

يا سواسبول سلام ...لا يذل مجدك ذام ...يذهب الدهر ويبقى ... من تفانيك نظام ...الخ ..الخ

وصفّق لـه الحاضرون (من عراقيـين وسوفيت) باعجـاب وحماس كبيريـن ، وطلبـوا منـيّ ، باعتبـاري المترجـم للوفـد ، ان (الترجـم !!) لهـم

• من ارشيف الراحل الدكتور ضياء نافع

مع الجواهري من النجف إلى الرياض

محمد رضا نصر الله

في صباي الغرّير كنت أذرّع أزقّة محلات النجف الترابية. وهي التي وصفها ابن بطوطة في رحلته إليها سنة ٧٢٧هـ - ١٣٢٦م بقوله: "ليس في هذه المدينة مغرم ولا مكاس ولا آل، إنما يحكم عليهم نقيب أشراف، وأهلها تجّار يسافرون في الأقطار، وهم أهل شجاعة وكرم، ولا يُضام جارهم، صَحِبْتهم في الأسفار فحمدتُ صحبتهم. يجيدون صناعات عديدة، وعلى الخصوص نسيج العباءة (النجفية) بخيوطها الخفيفة، والثقيل الغليظ النسج من الوبر". وقد وصف النجف بأنها من أحسن مدن العراق وأكثرها ناساً وأتقنها بناءً، ولها أسواق حسنة نظيفة.

كما يذكر مؤرخها جعفر باقر مَحبوبة في كتابه الشهير "ماضي النجف وحاضرها"، أنها كانت ميناءً بريّاً توسط العراق ونجد، منذ العصر العباسي، والمغولي، والصفوي الفارسي، والتركي العثماني حتى العصر الحاضر. فيما يؤكد لوي ماسينيون، المستشرق الفرنسي الذي أقام في العراق ردحاً من الزمن وكتب عنه بحوثاً قيمة، في كتابه "خطط الكوفة" أن النجف بلدة بدوية الطبع عربية الطابع، رغم أنها، وهي الملاصقة للكوفة، قامت على أساس الدراسة الدينية مع رحلة الشيخ الطوسي إليها منذ قرون.

يا ترى، هل نجد في وصف ابن بطوطة هذا، وما كَتب بعده مفتاحاً نحو الدخول إلى فهم شخصية المكان النجفي، بمحلاته الأربعة (المشراق، والبراق، والحويش، والعمارة) المكتظة بمبانيها الطينية القديمة، حيث ترعرع محمد مهدي الجواهري، ونشأ بينها، متميزة بدروسها الدينية واللغوية؟ إذ شدّتني -إذاك- قبب زرقاء لمدافن علماء آل كاشف الغطاء وأصهارهم من آل الجواهري. فجدهم الشيخ محمد حسن، مؤلف سفر "جواهر الكلام" الفقهي، انتسبت الأسرة إلى كتابه! هذا الذي أصبح محل اهتمام القانوني المصري الشهير عبد الرزاق السنهوري، حين جاء بغداد الثلاثينات، في مهمة لتنظيم الأحوال الشخصية في العراق الملكي.

الابن المتمرد

في تلك الدروب الضيقة، كنتُ أتحسس خطوات الجواهري، إذ راقتني حيلته الطفولية، مختبئاً في زير ماء معلمه (جناب عالي) هارباً من عقابه القاسي... وقد أصبح الطفل حبيب والده المُعمَّم، الذي حاول أن يورِّثه دراسة العلوم الحوزوية، رغم معرفته بميول ابنه المبكرة إلى قراءة الشعر ونظمه. وقد فرض عليه حفظ آيات من القرآن الكريم وخطب "نهج البلاغة" و"أمالي" أبي علي القالي و"بيان" الجاحظ وتبيانه وأشعار المتنبي.

هذا الميل الباكر هو الذي جعل الابن الضال المتمرد يرتجف، وهو يحمل إبريق الشاي واستكاناته الصغيرة إلى ضيف والده... السيد محمد سعيد الحبوبي، بطل ثورة العشرين، وقبل ذلك الفقيه المعروف، والشاعر رقيق العبارة بموشحاته الراقصة في شعره الغزلي، التي امتاز بها في ديوانه المطبوع في صيدا سنة ١٣٣١هـ.

لقد سقط إبريق الشاي النجفي واستكاناته من يدي الجواهري، تهيّباً وانبهاراً بشخصية الشاعر، لكي تتفتق موهبة الشعر لديه جزلة، متناصّة مع روائع شعراء العصور العباسي... معجباً بفروسية أبي الطيب، وموسيقية البحتري، وصور أبي تمام، وتفلسف المعري.

بل إن تمكنه من اللغة العربية والشعر القديم، جعله قادراً على "ابتداع" اشتقاقات لغوية في سيميائيته الشعرية. دائماً ما يستوقف النقاد إعجاب الجواهري بواحدة من بداياته الشعرية في ثورة العشرين العراقية:

لعلّ الذي ولّى مَنَ الدهر راجعٌ
فلا عيشَ إن لم تَبقَ إلا المطامعُ
غرورٌ يُمَنّينا الحياةَ وصفوُها
سرابٌ وجَنّاتُ الأماني بلاقعُ

كان الجواهري قد قرأ دواوين الفحول من شعراء العرب الأقدمين، واستوعب أسرارها الفنية، تسعفه ذاكرة حفظ قوية عجيبة، لم تفارقه وهو في أرذل العمر. ومع ذلك، لم يخضع لضغط قصائدها الفني، بل قام بتفكيكها وإعادة بنائها في شواردة، وفق إحساسه الذاتي ومواقفه السياسية... هذه التي جعلته يكاد يكون الشاعر العراقي، بل الشاعر العربي، الذي عبّر ببلاغته الشعرية البارعة عن مجمل التفاعلات الاجتماعية والأحداث السياسية، التي عصفت بوطنه، منذ نشأته بداية القرن العشرين إلى منتهاه. وقد عاصر ولادة الدولة الوطنية في العراق، حتى تمزّقه في العقد الأخير من القرن العشرين.

كنتُ حين أطوف بتلك البيوت الطينية العبقة بزهر ساكنيها، بين محلة العمارة ومحلة المشراق -وقد تكرر وقوفي بها طويلاً سنوات غرارة الصبا ويفاعة الشباب- أتساءل: كيف تسنّى للجواهري كتابة مقدمة ديوانه في طبعاته الأولى المعنونة "على قارعة الطريق"، وقد تميزت بنزعة حداثية مبكرة، متسائلة، متفلسفة... مما جعل الشاعر الفلسطيني محمود درويش بعد عقود يعيد نشرها في مجلة "الكرمل" أوائل الثمانينات بوصفها قصيدة نثر؟!

يقول الجواهري وقد عرّج عليه صاحبه... وهو في منتصف الطريق إلى حيث يريد: أأنت مسافر مثلي؟ قلت: لا؛ بل أنا شريد. قال: وأين وجهتك؟ قلت: وجهتي أن أضع مطلع الشمس على جبيني، وأغذّ في السير... قال: أوَلك أم؟ قلت: تركتها على قارعة الطريق، وبيدها كتاب، وإبريق، ومبخرة! وقتذاك كان قد ترك مدينته النجفية وأهلها، لأنه رفض -كما يقول- أن يرقص فيها مثل مَن لم تهب الطبيعة لأحد مثل حيلتها وصبرها على المجاراة... ليكتشف وهو "على قارعة الطريق" كثيراً من الوقائع والحقائق، ذكر بعضها في مذكراته. هل كان لقراءاته في كتب المعاصرين المترجمة -خاصة- دور في صياغة هذا النص النثري المفصلي في حياة الجواهري وتثوير تجربته الشعرية؟ يقول في حوار مع ابنته خيال، إنه كان في التاسعة عشرة من عمره، حين التقط كتب عصر النهضة عبر كتب شبلي شميل وغيره، مما كان يرد على النجف من كتب ومجلات عربية بين العشرينات والثلاثينات الميلادية، وكذلك مترجمات لكتب وروايات نقلت أوروبا من قرونها الوسطى إلى العصر الحديث.

دفعته هذه القراءات إلى الخروج المتمرد من قوقعة النجف وسورها الصلد، بقراءاته الواسعة في الأدب الروسي والفرنسي -خاصة- وقد شد الرحال إليها معجباً بحضارتها ومسحوراً بلغتها، ومفتوناً بجمال مَن تعرّف عليها. واقفاً عند كتابات الفرنسي الغاضب صاحب المقالة الشهيرة "إني أتهم"، إميل زولا، منبهراً بروايته "الأوباش"، التي تمثل فكرتها وعنوانها في واحدة من قصائده الثائرة:

جهّلها ما يُراد بنا قُلْنا
نواميسٌ يدبّرها الخفاءُ
فلما أيقظتْنا من سُبات
مكائدُ دبّرتها الأقوياءُ
وليس هناك شك في حياةٍ
تدوسُ العاجزين ولا مراء
فكانتْ قوّةٌ أخرى وداءٌ
رَجَونا أن يكونَ به الدواء

المعركة مع ساطع الحصري

من هنا تبدأ تجربة الجواهري الشعرية والسياسية، بانتقاله بعمّته وجبّته أواخر العشرينات إلى بغداد، للتدريس في إحدى مدارسها الثانوية. على أثر ذلك، احتدمت المعركة بينه وبين المفكر القومي السوري ساطع الحصري، الذي شكك في جنسية الجواهري ووطنيته. لخّصها الشاعر بعد ذلك سنة ١٩٦٨ في بيتيه الساخرين من قصيدته "إيه بيروت":

أنا -بيروتُ- قطعةٌ من أديمٍ
عربيٍّ دما ولحماً وجِلدا
أولدُ الضادَ شيخماً
ودعيّ "ابن تسعين" يمسخ القاف قرداً

لم يستمر الجواهري في رغيد عمله في تشريفات الملك فيصل الأول، رغم احتضانه له بعد هذه المعركة السجال، بل وقف معه رغم ما استثارته قصائد الجواهري، من خروج على العرف الاجتماعي والنمط الثقافي، خصوصاً في قصيدته "جرّبيني" وكذلك "النزعة" أو ليلة من ليالي الشباب"، بعدما أطرح عمّته دون مراعاة لأحد، منحازاً في معظم شعره لتمرده النفسي وجيشانه الشعري وتقلباته الفكرية.

لقد اشتد في اشتطاطه هذا منذ خرج سنة ١٩٣٠ إلى عالم الصحافة وصخبها السياسي، مصدّراً الجريدة تلو الجريدة، حتى عام الوثبة ومعاهدة بورتسموث سنة ١٩٤٨. وقد استوى شعر الجواهري على سوقه الغاضب ومزاجه المتقلب، حيث قُتل أخوه الأصغر جعفر... وما أدراك ما أخوه جعفر، رواء الربيع. في لقائي التلفزيوني معه في دمشق في يوليو (تموز) سنة ١٩٩٤، سألته: كثير من القصائد التي قالها الجواهري غالباً ما تتردد فيها مفردة (الدم)، فهل لمقتل أخيك جعفر دورٌ في ذلك؟ ولماذا لم تستبدل بمصطلح الدم مصطلحاً آخر يحاول أن يؤسس مفاهيم جديدة في العقل والوجدان العربي؟

أجاب: "والله مثلما تفضّلت، كأنه الآن شخص يُنبّهني كأنني غير منتبه إلى مسألة جعفر. وأنت في الحقيقة الآن ذكّرتني، فقبلها لم أفكّر بهذا الموضوع. الآن جعلتني أفكر أنْ لها دخلاً؛ لأنه في هذه اللحظة شَخَصَتْ القصائد أمامي، قصائدي قبل مقتل جعفر وبعدها. فوجدتُ أنك تجد أنت بالذات بنظرة سريعة على المرحلتين قبل وبعد، الفرق كبيراً. الدم ابتدأ يتكرّر عندي كثيراً وأنا أعترف بذلك. في الواقع أنا لا أحب الدم، إلا دم الشهيد؛ لأن دم الشهادة ليس قليل الشأن ولا سهلاً، فأن يستشهد المرء أمر صعب، والدم غالٍ في الواقع".

خل الدم الغالي يسيل

إن المُسيل هو القتيل

هذا أنا أسميه الدم الغالي. وفي الحقيقة هناك دم رخيص مع الأسف. وفي العراق جرى كثير من هذا الدم المرتجل، غير المستهدف، أو المستهدف المنحرف، أي غير المصوَّب، وغير الرامي إلى هدف محدد. فهذا مع الأسف يسمونه الدم الهدر. هذا شيء، والدم الغالي شيء آخر؛ الدم الغالي المصمم الثائر، والمثمر أيضاً؛ لأن هناك دماء رخيصة سالت كثيراً دون أن تُثمر شيئاً.

وحين سألته: وهل أثمر الدم في العراق يا أستاذ؟ أجاب: "مع الأسف وبصراحة لم يُثمر كثيراً، الدم درس، الدم عبرة وعظة. وما نحن فيه اليوم بعد هذا كله وبعد الدماء التي سالت في الواقع، مع الأسف ليست تكافئ النتائج أو المواقف الراهنة، أو قبل الراهنة، أو في كل المراحل التي مرّ بها التاريخ العراقي. كان الدم في العهد الملكي كثيراً ما يُهدر.

فمعاهدة بورتسموث أُلغيت ببيان رسمي، بموقف شريف لا أشرف منه، حتى من قبل الملكية. أذيع البيان في الليلة الشهيرة وأسقطت المعاهدة نزولاً عند آراء قادة الأحزاب وزعماء البلد، ورغبة الشعب اعتُبرت لاغية ببيان رسمي. ونُفاجأ في الصباح بمعركة الجسر وذهب فيها جعفر شهيداً رخيص الدم في الواقع. فهو دم غالٍ من جهة، ومهدور من جهة أخرى. فأنا لم أفهم -مثلاً- لماذا أُلغيت المعاهدة؟ فكان الدم يسيل لشيء آخر، ويُدخّر لمرحلة قادمة ولمطلب جديد، لا لمعاهدة أسقطت بحد ذاتها وانتهى كل شيء.

غادر الجواهري سنة ١٩٦١ مغتربا في براغ سعيداً بلجوئه السياسي إليها، في هذه المدينة الجميلة بطبيعتها والمتعددة في مقاهيها المأنوسة، رقّ طبع الجواهري، بعد صحراوية النجف وطبيعتها الجافة، وأشرقت صوره بكل ما في تشيكوسلوفاكيا من خضرة أرض وجمال صبايا.

يقول في قصيدته "بائعة السمك":

ذاتَ غداةٍ وقد أوجفتْ
بنا شهوةُ الجائعِ الحائرِ
دَلفنا لـ"حانوتِ" سمّاكةٍ
نُزَوِّدُ بالسمكِ "الكابريِّ"
فلاحتْ لنا حلوةُ المُجتلى
تَلَفّتُ كالرشأ النافرِ
تَشُفُّ الحزامُ على بانةٍ
وتفْتَرُ عن قمرٍ زاهرِ

ومع ذلك، فإن الحنين إلى العراق وهو في العراق، دائما ما يشده إليه، بل يكدره اشتياقه إليه، وقد أصبح في منفاه الناعم في براغ، مستذكراً على الدوام ما قاله في "مقصورته" الطويلة عن حنينه الوطني الراسخ، وهي إحدى أبرز مفاخر الجواهري الشعرية. نظمها في أواسط عام ١٩٤٧، ونشر قطعاً منها في جريدته "الرأي العام".

وقد ذكر شرّاح الطبعة التي أصدرتها وزارة الثقافة العراقية، من مجموعته الشعرية ذات الأجزاء السبعة سنة ١٩٧٤: "إن جزءاً كبيراً لوزارة الخارجية، ليمثل العراق الجمهوري في مفاوضاته مع دولة الكويت بعد استقلالها.

أما الوجه القطيفي الآخر في العراق فهو سلمان الصفواني القطيفي، الذي التحق بحركة الإمام الخالصي لنيل استقلال العراق التام من الهيمنة البريطانية على قراره الوطني. وبعد ذلك عرفه العراقيون صحفياً بارزاً، شهر بمقالاته ذات النغمة العروبية. هذا ما ذكره الأستاذ عبد الرزاق الهلالي، مؤلف كتاب "زكي مبارك في العراق"، مشيراً إلى تلاحي الصفواني الأدبي مع الأديب المصري د. زكي مبارك، في أثناء انتدابه للتدريس في دار المعلمين العالية ببغداد، بين سنوات الثلاثينات والأربعينات، حين كان يساجل الصفواني على صفحات مجلته (اليقظة) البغدادية. هذا وقد أصبح الصفواني فيما بعد وزيراً في حكومة العارفين، وزيراً لشؤون مجلس الوزراء مرتين، مكافأة لعداوته الضروس لنظام عبد الكريم قاسم، بعدما هرب منه بداية الستينات إلى خارج العراق، فاختار القاهرة مهاجراً ومستقرّاً.

قال الجواهري: "دُعْ مَن هذا الآن... وعليك بأكل البطيخ الأحمر والأصفر، وشرب القهوة المرة، ولتجعل شرب الشاي العراقي تحية لهذه السهرة على أن تأتيني من غد... فإنّ لي معك حديثاً قد يطول.

في ضحى اليوم التالي توجهت إلى داره، وهي عامرة بالحراس والسيارة المرسيدس الفارهة، وحين أذن لي، استقبلني بحيوية فائقة. كان قد حلق ذقنه! أمسك بيدي ليقودني إلى مجلس صغير اختاره للاختصار بي".

من فوره انطلق يُبدي رغبة شديدة في زيارة المملكة، معبّراً عن أنها تلحّ عليه منذ قابل نائب الملك فيصل في زيارته لبغداد في سنوات الثلاثينات الميلادية، ونظم فيه قصيدة نكاية بالملك فيصل الأول في موجة من تقلباته العارمة. وأردف: "لعلك قرأت قصيدتي في مدحه، حيث طلبت منه نشرها في جريدة (أم القرى). بل إنني أبديت رغبتي في أن يوصل إلى والده الملك العظيم عبد العزيز بن سعود أن أكون ضيفاً عليه في السعودية".

أجبته: يا أبا فرات تلك كانت مناورة سياسية منك. فبقصد تصعيد خلافك مع ملك العراق فيصل الأول، رحت توغر صدره بمديح فيصل السعودية ووالده الملك عبد العزيز.

انفرج وجهه عن ابتسامة ماكرة قائلاً: "هذا صحيح... ولكن مدحي لعبد العزيز كان محض إعجاب شخصي بفروسيته العربية... واليوم أنتم أيها السعوديون تتمتعون بما قام به الملك عبد العزيز من دولة أصبح لها ألف حساب، لماذا لا تساعدني على تلبية رغبة يمتد عمرها إلى أكثر من ستين عاماً بزيارة بلادكم؟ إنني أسمع عن مهرجان الجنادرية".

أجبته: بلادي مفتوحة لزيارة أي مفكر وأديب وشاعر عربي... فما بالك بشاعر شهير، يحمل على ظهره هذا السجل السياسي والثقافي الحافل للعراق في القرن العشرين، منذ ثورة العشرين! إن الجميع سيرحبون بك من القمة إلى القاعدة.

وهنا وجدته يخط بيده المرتجفة إهداءً معبراً على ديوانه كاتباً النص التالي: "إلى أخي وحبيبي الكريم... أهديه إليك، ومعه فرط حبي وحميم إعزازي. المحب المعهود محمد مهدي الجواهري ٢١ تموز ١٩٩٤م".

قال الجواهري: "دعْنَ من هذا الآن... وعليك بأكل البطيخ الأحمر والأصفر، وشرب القهوة المرة، ولتجعل شرب الشاي العراقي تحية لهذه السهرة على أن تأتيني من غد... فإنّ لي معك حديثاً قد يطول.

في ضحى اليوم التالي توجهت إلى داره، وهي عامرة بالحراس والسيارة المرسيدس الفارهة، وحين أذن لي، استقبلني بحيوية فائقة. كان قد حلق ذقنه! أمسك بيدي ليقودني إلى مجلس صغير اختاره للاختصار بي".

من فوره انطلق يُبدي رغبة شديدة في زيارة المملكة، معبّراً عن أنها تلحّ عليه منذ قابل نائب الملك فيصل في زيارته لبغداد في سنوات الثلاثينات الميلادية، ونظم فيه قصيدة نكاية بالملك فيصل الأول في موجة من تقلباته العارمة. وأردف: "لعلك قرأت قصيدتي في مدحه، حيث طلبت منه نشرها في جريدة (أم القرى). بل إنني أبديت رغبتي في أن يوصل إلى والده الملك العظيم عبد العزيز بن سعود أن أكون ضيفاً عليه في السعودية".

العدد (5955) السنة الثانية والعشرون - الخميس (31) تموز 2025

الجواهري و دجلة الخير

صلاح نيازي

لأقلْ من البداية إن قصيدة "يا دجلة الخير" رغم أنها من أشد أشعار الجواهري ألماً وإحباطا، إلاّ أنها، من ناحية فنية، ليست من جياد قصائده. القصيدة تفتقر إلى وحدة الموضوع، من جانب، وإلى الموقف الفلسفي من جانب آخر. التأليف في هذه القصيدة يجعل القارئ، بلغ ما بلغ تعاطفه معها، متفرجاً لا جزءاً منها كما في التآليف الأجنبية المرموقة.

على أية حال، تعددت أشكال الماء في قصيدة: "يا دجلة الخير" تعدداً لا مثيل له في الشعر على ما يبدو. يتراوح ما بين نهر جار وشراع، وبين عَرَق نازف من حمى، إلى دمعة نائحة، إلى كوب يقبع فيه سمّ وغسلين، إلى لدغ في ناب ثعبان.

كانت تلك المياه، هي الأصباغ التي رسم بها الشاعر أخطر حالات الخوف. ولكنْ مهلاً.

كتب محمد مهدي الجواهري، وهو شاعر جازيك من شاعر، هذه القصيدة الداوية: "يا دجلة الخير" ببراغ عام ١٩٦٢ في أحلك ظرف في حياته. القصيدة فجيعة. فجيعة بالتمام. وهي إلى ذلك تشكّل مع أختها القصيدة الثانية: "بائعة السمك في براغ" منعطفاً شعريّاً خطيراً. فمن ناحية، نرى الجواهري، ينتقل من شاعر تحريضي هادر: "أنا حتفهم ألج البيوت عليهم"، إلى شاعر متأفف متهالك نائح، وأقصى ما يتمناه أن يكون "الشراع الرخص" بنهر دجلة كفنه. ومن ناحية أخرى اكتشف الجواهري ربما لأوّل مرة، ضعفه البشري وما أعظمه. شاعر تائه بعناية ببراغ، لا يرطن لغة أهل البلد، "الفواكه المحرمة" أمامه الآن لم تعد محرمة، ولكنه عاجز عن أن ينوشها. وقع في مضيق من أمره. وحيد. الوحدة أشدّ قسوة حين تكون وسط آزدحام. كان الجواهري وحيداً وسط ازدحام. مسرحه الآن فارغ من أيّ جمهور، ومن أيّ ديكور" خالٍ من أية ستارة أو ممثلين. مسرح خاص. بات الجواهري فيه هو المؤلف وهو الممثل وهو النظارة. راح وكأنّه في أعمق مناجاة يعترف بشيخوخته الشعرية، وذبوله الجسدي، راح يعترف بانفصام شخصيته. وسرعان ما تفككت حواسه وباتت حاسة اللمس تنوب عن بقية الحواس بأقسى رعب، وارتعاش، لم يشهد له الشعر العربي رديفاً من قبل، كما سنرى. تماماً كما انفصلت حواسّ مكبث وتفردتْ حاسة البصر بالدقّة.

كان الجواهري في هذه الفترة يفتش عن ملاذ دافئ وحنون. وملاذ كهذا لا يكون إلاّ في المرأة أو في شئ شبيه بالأمّ، فلا عجب إنْ وصف "فرصوفيا" بالأمّ الرؤوم، وأيّ عجب إن ترامى على صدر بيروت: "ظمآناً". (ثمّة إشارات كثيرة، في هذه القصيدة، وغيرها إلى تعلّق الجواهري بأمّه، إنْ حبّاً أو ملاذاً. هل قلتُ ملاذاً؟ ليكنْ ذلك. ولكنْ ما من مقالة نقدية أو بحث أكاديمي دلّني على هذه الوشيجة. البحوث العربية للأسف تتجاهل كلية دور الامّ في تكوين الفنان، على عكس الدراسات الغربية(.

الظمأ لا يعني عند الجواهري، العطش حصراً، وإنما الجوع للطمأنينة والأمان عموماً.

أو بكلمات أدقّ، الشكوى من الحرمان، من أيّ نوع.

على ضوء الأسطر أعلاه قد نستدل على مكنونات نفسية في المقطعين المائيين اللذين اخترناهما من "يا دجلة الخير" للدرس أو الفحص.

يقول الجواهري في المطلع:

حييت سفحك عن بعد فحييني
يا دجلة الخير يا أمّ البساتين
حييت سفحك ظمآناً ألوذ به
لوذ الحمائم بين الماء والطين..."

المطلع يذكّر حتماً بمطلع القصيدة المنسوبة إلى نهشل بن حري: "إنا محيوك يا سلمى فحيينا" الغريب، وليس ذلك بالغريب، أن الحزن لدى الشاعر العراقي ولا سيّما الجواهري، لا يحلّق به إلى قمم روحية مدوخة، وإنما يجرّه جرّاً إلى القاع، إلى ماضٍ سحيق، إلى أمومة مفقودة. يترافق هذا الحزن مع تعابير أشبه ما تكون بالعامية رغم أنها فصيحة، مثل تعبير: "يا أمّ البساتين". أو السعلية، أو تكرار حرف: يا، الذي تكرر أكثر من ستين مرة في هذه القصيدة، فلا تدري هل هو نداء أم آستغاثة؟ أم أنه استلاف من اللهجة العامية المتداولة ويُعنى به التعجب تعظيماً أم تحقيراً؟

الثقل النوعي في الشطر الأول يتأتى من تعبير: "عن بعد" وله هنا مرارة الفطام. ها هو الجواهري إذن خارج جنة دجلة، يبادر هو بتحية السفح. (السفح لغة: أسفل الجبل الذي يغلظ فيسفح فيه الماءُ).

لكن لماذا: "يا أمّ البساتين" أقصد لماذا أمّ؟ هل ثمة حالة نفسية وراء ذلك؟

في البيت الثاني، يتكشف لنا ضعف بشري آخر:

"حييت سفحك ظمآناً ألوذ به
لوذ الحمائم بين الماء والطين"

قلنا أعلاه ان الظمأ لدى الجواهري لا يعني العطش حصراً، كما أنّ لفظة ألوذ تعني بالإضافة إلى الآستغاثة: اللجوء والاستتار والتحصن. صورة اللواذ إذن مقرونة بالظمأ لا تعني سوى نشدان الطمأنينة والأمان. في الصورة كذلك، كما يبدو، خوف كامن.

أما تشبيه نفسه "بالحمائم بين الماء والطين"، فمظهر آخر من مظاهر ضعفه البشري، لا سيما وقد اختار الحمائم في أقصى حالاتها ضعفاً حينما تكون ظامئة تلهث. لا أدري لماذا يوحي تعبير: "بين الماء والطين" بطفولة بشرية بريئة لاهية.

ينتقل الجواهري دون "سابق إنذار" في البيتين الخامس والسادس:

وأنتَ يا قارباً تلوي الرياح به
ليّ النسائم أطراف الأفانين
وددت ذاك الشراع الرخص لو كفني
يُحاك منه غداة البين يطويني"

كيف انتقل الشاعر فجأة من عيون الماء والينابيع وهما ممتلئتان حياة وحركة وموسيقى، ومن شراع ناعم يتهادى بارتخاء، إلى أمنية يكون فيها ذاك الشراع كفنه الذي يطويه؟

حتى لو انّ راوية القصيدة تشهّى أن يطويه الكفن حقاً، إلاّ أنّ التعبير ليس ببعيد عن مقولات العامة إنْ هي ارادت استدرار العطف؟

المقطع المائي الآخر أدناه يصوّر فيه الجواهري، حالة من الخوف لا مثيل لها في الشعر العربي، وربما فيما قرأت من الشعر الإنكليزي. قال مخاطباً دجلة الخير:

"لو تعلمين بأطيافي ووحشتها
وددت مثلي لو ان النوم يجفوني
أجسّ يقظان أطرافي أعالجها
ممّا تحرّقت من نوم بأتون
وأستريح إلى كوب يطمّنني
أنْ ليس ما فيه من ماء بغسلين
وألمس الجدر الدكناء تخبرني
أنْ لست في مهمه بالغيل مسكون"

في البيت الأوّل أعلاه استحال نهر دجلة إلى مخلوقة أنثى واعية ولها حنان أمومي. ولكنْ هل هناك أكثر ألماً من أن يبات النوم هو الداء، وأنْ يبات اللّا نوم هو العلاج!

أكثر من ذلك ما الذي فعله الجواهري براوية قصيدته؟ أوّلاً أيقظه كرهاً بحمّى. كان يتقلّى بكابوس ناهش. راح يجسّ أطرافه، ليتأكد من أنّه ما يزال حيّاً. الراوية مذعور حتى من الكوب خشاة أن يكون غسليناً، فكيف يمكنه إطفاء حريقه!

ولتضخيم المأساة، فكّك المؤلف حواس الراوية فعطّل حاسة السمع أوّلاً، ثمّ حاسة البصر، بوضعها في ظلام دامس. فلا يدري أين هو، كما عطّل حاسة الذوق، فلا يستبين الماء من الغسلين.

ولكن أنّى له أنْ يتأكد؟ الجهات موصدة. هنا برزت حاسة اللمس لتنوب عن بقية الحواس. الراوية يتلمس الجدران التي وصفها الشاعر بالدكناء حتى لا يعرف لها شكلاً، فيطمئنّ إليها. هكذا استسلم الجواهري، وأرخى عنانه، تاركاً حياته في مهب الريح أخيراً:

"يا دجلة الخير خليني وما قسمتْ
لي المقادير من لدغ الثعابين"

(قد يكون من المفيد أن نذكر ان الحيوانات، في شعر الجواهري وهي قليلة أصلاً، نمطية ملقوطة من بطون الكتب، وليست من تجربة شخصية).

××××

لكن هل كان الجواهري يصوّر نهر دجلة حقّاً، أم انه أشبه بلازمة موسيقية لاستدراج المعاني، او ربما كان دجلة الخير، وقد تكرر هذا التعبير أكثر من عشرين مرّة، مجرد تعويذة يتمسّك بها المرء لدرء الملمات. (بالمقابل يصور أحمد شوقي، وهو من صاغة الشعروغاصة النفائس، نهر النيل وكأنه معبد مائي طاف يحتفل بزفاف أجمل فتاة لأكثر الأنهار غلمة).

الفرق أن "دجلة الخير" ليست ماء بل حالات نفسية مؤنسنة، تتجسد في مخلوقات بشرية. فمرة يتعامل

الجواهري مع دجلة الخير وكأنّه صديق يعترف بين يديه: "يا دجلة الخير قد هانت مطامحنا"، ومرة يطلب منه أن يقوم مقام الأولياء الصالحين وذوي الكرامات، فيلبي له امنياته: "يا دجلة الخير منيني بعاطفة...)، ثم مرّة واحدة يمّحي النهر. وها نحن أمام صور غريبة. يخاطب الجواهري دجلة الخير: "يا أطياف ساحرة، أو يا سكتة القلب، أو يا إعصار زوبعة، أو يا خنجر الغدر، أو يا أغصان زيتون..." وما من ماء أو موج أو ضفة.

ولكنّ الأغرب صدقاً وحقّاً، هو تشبيه "دجلة الخيرات" بالسعلية القرعاء:

"وأنت يا دجلة الخيرات سعلية
قرعاء نافجة الحضنين تعلوني"

للحقّ لم أفهم ما الذي قصده الجواهري بهذا البيت. ولا أريد أن أفهم.

محمد مهدي الجواهري: الأصالة في الإخلاص للشعر

د. نادية هناوي

ما يميز تموزنا عن سواه من شهور السنة، أنه شهد مولد اثنين عراقيين بامتياز: الأول ثورة عارمة غيّرت العراق عن بكرة أبيه، وقدمته إلى العالم في وجه جديد وأصيل، هي ثورة العشرين الكبرى. والآخر هو الجواهري شاعر العرب الاكبر الذي كان يوم مولده التموزي إعلانا عن ثروة أدبية، ستحفظ للشعر العربي ذاكرته، وستعيد إليه عنفوانه الذي كان عليه أيام ازدهار الحضارة العربية الإسلامية حين كان الشعر في ذروة مجده وألقه على أيدي أبي نواس وأبي تمام والمتنبي والمعري وغيرهم من شعراء العراق والشام وشمال إفريقيا والأندلس.

لقد كان الجواهري خلال مسيرته الشعرية المعطاء، بركانا من الشعر الفصيح، وكانت قصيدته جزءا لا يتجزأ من الحياة اليومية، تختلط بأديمها وتتمازج مع عواليها وتعبأ بعواديها، تتحسس العواصف وتستجيب للتطلعات. فكان هذا كله بمثابة نقلة استثنائية في وضع القصيدة العربية التي صارت تشمخ مع شموخ شعر الجواهري، وتتقدم جماليا مع وضوح مواقفه وتجاربه في الحياة، لتستقر في الوضع الذي ينبغي أن تكون فيه. وبسبب هذا وغيره، صار شعره لسان حال الجماهير والمعبِّر عن وجدانها والموئل الذي منه تستمد الجمال، ومن خلاله تنمي الوعي بواقعها حاضرا ومستقبلا.

حصدت تجربة الجواهري المقومات الحقة التي تجعل الشعر حيا نابضا يتجدد مع تجدد الأجيال، فكان أن تفرد وتفوق على الذاهب من الشعراء وعلى السائد منهم أيضا سواء في حياته أو بعد رحيله، ليكون آخر عمالقة الشعر العربي. ولم تكن الطريقة التي بها صنع الجواهري شاعريته بالهينة، بل هي حصيلة مران لساني وصقل معرفي وتحشيد نفسي مع ملكة أصيلة وموهبة سامقة، انقطع من أجل تنميتها – وهو في ريعان الصبا- انقطاعا تاما للقراءة حتى أخلص للشعر إخلاصا، معه تمكن من هضم منجز الشعر العربي كله من ألفه إلى يائه على سعة هذا المنجز وطول تاريخه. ومن ثم غدا ملتحما بالشعر بشكل نهائي، فلا يحتدم إلا به، ولا ينشدُّ انشدادا إلا إليه، حتى ملك ناصيته. فكانت القصيدة رهن بنانه، يطوعها كيف يشاء ومتى شاء، وأنى حل وارتحل.

ولقد أشار الجواهري في مذكراته إلى أنه كان يقرأ كل كتاب يقع بيده(كنت لا أدع كتاباً واحداً يفلت من يدي، وما أكثر هذه الكتب مترجماً ومنقولاً إلى العربية من أشهر كتاب الغرب: الأوباش لاميل زولا واللصوص لشيلر وابن الطبيعة لهايز باشييف ومذكرات حمار للكاتبة الفرنسية الشهيرة التي نسيت اسمها الآن ويخطر على بالي أن توفيق الحكيم استمد منها كتابه الجميل حمار الحكيم)

بهذا الشكل أخلص الجواهري للشعر تثقيفا وتهذيبا، وصارت الأصالة عنوانا دالا على ما لديه من مرجعيات، كانت تعمل بشكل جدلي ازدواجي، يتلاقى فيها دوما عنصران تكوينيان: الأول هو الذات والآخر هو الجمهور. وكانت كل واحدة من هذه المرجعيات عبارة عن تلازمية تعالقية فيها النص الجواهري، يؤسس لنفسه طرائق التقاسم الموضوعي أو التجاور الجمالي ما بين ذينك العنصرين أي الذات والجمهور، فهما اللذان يحددان له طبيعة التوظيف الاسلوبي والمكون الشعري. ويمكن إجمال تلك المرجعيات بـ: ١/ التلازم التراثي بين الديني والتاريخي و٢/ المرجعية الابداعية ما بين الشعري والنقدي و٣/ المرجعية الجنوسية بتلازم الثنائية الجندرية و٤/ المرجعية الذاتية المتمثلة بالهوية انتماء واغترابا.

وثمة مرجعيات أُخر، ساهمت جميعها في أن تجعل من الجواهري شاعرا كونيا، وتجعل من شعره شمولياً، يتعامل مع الأحداث العالمية والقضايا الوطنية والقومية تعاملاً انسانياً واحداً.

أضف إلى هذا ميزة خاصة بشعرية الجواهري وهي القدرة على الاستشراف المستقبلي الذي منح قصيدته الدوامية بوصفها لازمة جمالية من لوازم أي فعل شعري إبداعي والتي من خلالها تحاشت قصيدته المنوالية أي الثبات على منوال واحد معه، يكرر الشاعر نفسه. وواحدة من استشرافات الجواهري الخالدة ما كان يضمخ به العشرات من قصائده بالخطابات التي ترنُّ في الآذان قوية وهي تستنهض همم الشباب العراقي، واضعة فيهم الأمل ومحملة إياهم الرسالة باتجاه صنع غد جديد، لن يتحقق إلا بهم.

ولا شك في أن عظمة الجواهري هي في عينه الثاقبة في النظر إلى الماضي والمستحضرة للمستقبل تاريخا يقايضه الشعر بالتجدد وشاهدا يواكب الوثبات والانتفاضات والثورات، صوتاً لا يعرف الصمت، بل يعرف كيف يركِّز اللحظة ويختزلها وهو في لجة الاحتدام طارحا أفكاره الحرة ومواقفه غير اللينة، كاشفا عما له من ثقافة عميقة.

إن هذه المقومات والمرجعيات والاستشرافات التي ضمخت مسيرة شاعر الأجيال محمد مهدي الجواهري، استطاع نفر قليل من شعراء اليوم تدبرها، فأدركوا أن الوصول إلى الأصالة في عالم الشعر يعني الإخلاص له أيما إخلاص. ومن دون ذلك لا شعر ولا شاعرية، وإنما هو نفخ في قرب مثقوبة وهواء في شبك. مما نلمسه في كم كبير ممن يتسمون جزافا (شعراء وشواعر) وهم وهنَّ ليسوا كذلك بالمرة. وغالبا ما يتعكزون في هذه التسمية على ما لهم من وسائل لا شعرية؛ هي عادة ما تكون خدمية، يروجون من خلالها بضاعتهم الكاسدة. وكلما ازداد هؤلاء قوة وعددا، ابتعد الشعر أكثر، ليصير في المنأى بعيدا غريبا ومهجورا.

إن هذه الظاهرة جديرة بالتأمل وتحتاج إلى وقفات نقدية متأنية، نسائل فيها الشعر نفسه عن سبب هرولة المهرولين وراء التحلي بصفة(شاعر) ولماذا لا يكترث كثير من حاملي هذه الصفة أو يتفكروا في استلهام المقومات التي نصَّ عليه تاريخ الشعر قديما وحديثا، والمتجلية خير التجلي في تجارب الشعراء الكبار وفي طليعتهم الجواهري. ولعل أكثر الأدلة وضوحا على عدم الاكتراث واللاتفكر، أننا بالكاد نجد في هذه الكثرة من يمكن لنا أن نبحث في نصوصه عن تجربة أسست، أو موهبة صُقِلت، أو اكتساب أبان عن اكتراث بالأصالة.

من هنا يغدو استلهام التجربة الجواهرية، شكلا ومضمونا ومرجعيات، أمرا ضروريا لمن يريد أن يكون له موطئ قدم في عالم الشعر. وليس كما يتصور بعضهم من أن هذا الموطئ يُحصد ببساطة، بمجرد التصاق صفة الشاعر باسمه. ومن ثم لا قراءات ولا مثاقفات، وإنما هي مجموعة أسطر، ينشرها في جريدة أو مجلة ويصبح بعد ذلك شاعرا بالغصب والاحتيال.

هذا هو الوهم في استسهال فن الشعر، وما من خيار في إصلاح هذا الحال سوى باستعادة انجازات الشعراء الأصلاء الذين كان إخلاصهم للشعر وليس غير الشعر. وما استعادة تجربة الجواهري إلا استعادة لتجارب عمالقة الشعر وهو آخرهم. ففي شعره وسيرته نماذج للتدرب والمران والتزود بالإتقان واستلهام المرجعيات وجميعها مسائل لا غنى عنها لمن يروم الدخول في معترك الكتابة الشعرية؛ وبالشكل الذي يدعم الموهبة ويصقل البنيان ويهذب اللسان والوجدان. وهذا كله إخلاص للشعر الذي بدوره سيهدي قائله إلى الأصالة.

وكم من شاعر أبان عن موهبة، لكن عدم إخلاصه للشعر- بسبب مساعيه الى المغانم او تطلعاته الشرهة إلى المكاسب - جعل موهبته تذبل، وتجربته تتلاشى، وها هو اليوم "شاعر" بالاسم فقط.

ولشيوع هذا الحال، يقل الشعراء الأصلاء في راهننا الأدبي، ليستمر الجواهري علما في رأسه نار، يهدي نحو الشعر ويدل على سبل الإخلاص للقصيدة.

وليس غريبا بعد ذلك كله، أن يثير بعض فاقدي المواهب وقاصري التجارب بين الحين والاخر أسئلة خاوية وخابية: أين هو شعر الجواهري؟ وما الذي تبقى منه؟ لماذا تراجع أمام انجازات الشعر الجديد؟ معبرين بذلك عما في نفوسهم من الحقد والحسد لأولئك الشعراء الأصلاء، مسقطين ما في دواخلهم من حقيقة الانكسار والانطفاء وانتهاء الأجل الإبداعي.

وإلا هل يمكن لأحد- أديبا كان أو غير أديب- أن ينسى الجواهري متنبي العصر الحديث وصاحب الشاعرية الحقة والحساسية المتدفقة بالفورة الجماهيرية والحماسة الشعبية التي تتجسد كل يوم في أشكال عدة من الرفض والانتفاض والثورة على الظلم والقهر والحرمان.

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى
للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

هيئة التحرير
غادة العاملي
رفعة عبد الرزاق

يمكنكم متابعة الموقع الالكتروني
من خلال قراءة QR Code:

www.almadasupplements.com
Email: info@almadapaper.net

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

الجواهري فارس القوافي

رشيد الخيّون

وعندما أكتب عن الجواهري لا يهمني كيف كانت حياته الخاصة الشخصية، إنما آخذ طبائعه مِن قصائده، فهي المؤثر في المجتمَع، أما بقية الأشياء فهي له وبحدود شخصه لا أكثر. أراها من السَّذاجة أن تطرب الأذن لعرى قوافي الجواهري ويمنعها أنه قال كذا وتصرف كذا، وهل كان أبو الطيب المتنبي (اغتيل ٣٥٤ هـ) مَلكاً في شؤونه الخاصة؟! وها هو مازال يطرب الأجيال تلو الأجيال، وغدت أبياته أمثالاً سارت بها الرُّكبان، والجواهري متنبي عصره.

أخبرني مِن ظل لزمن قريباً منه، على الرّغم من فارق العمر بينهما، فالجواهري بين أن يكون مِن ولادات ١٨٩٩ و١٩٠٢ والباحث محمد حسين الأعرجي مِن ولادات ١٩٤٩ ولم يطل به العمر وطال بالجواهري، فقد توفى (٢٠١٠) قال الأعرجي: سأل أحدهم الجواهري: ماذا حضرت لألفية المتنبي، فسكت أبو فرات وأشاح بوجهه عنه، ثم قال: بينهم المتنبي ويبحثون عن المتنبي! مثل هذه لا تحسب زلة على الجواهري، ولا يدعي الكبرياء، فهناك ممَن تأخذهم الخُيلاء وتجدها ليست غريبة، ولا فيها ما يقلل مِن الشّأن، وخُيلاء الجواهري صادقة عندما قال في شعره على مدى القرن تقريباً: أبا الشِّعر قُلْ ما يُعجب الابن والأبا/ وهل لك إلا أن تقول فتُعجبا"!

لم تعجب العديد مِن أصحاب المواقف السياسية والأيديولوجية مدائح محمد مهدي الجواهري، فهم يأخذونه شاعراً ملتزماً لقضايا الجماهير أو الأوطان، فكالوا له اللّعنات لأنه مدح نوري السّعيد (قُتل ١٩٥٨)، والوصي عبد الإله (قُتل ١٩٥٨)، ثم ما قاله في الملك الشّاب فيصل الثّاني (قُتل ١٩٥٨) في قصيدة "التّتويج" (١٩٥٣):

ته يا ربيع بزهوك العطر النّدي
وبضوئك الزّاهي ربيع المولدِ

لقد دفعوا الجواهري لكثرة ثلبهم له بسبب القصيدة الأخيرة، إلى اعتبارها في مذكراته بـ "الهاوية"، وتحدث عنها مِن دون إشارة إلى أبياتها، وحسب ظني، أنها مرفوعة مِن دواوينه المطبوعة التي اطلعت عليها، مع أنها مِن مفاخر قصائده في البناء وفي اللغة، والملك الشّاب يستحق هذا الثّناء، فلا هو مِن القتلة ولا هو مِن الفاسدين بالمال العام، ولا ممَن باع الوطن، كان شريفاً في ملكه ونفسه. بل أراه ويراه غيري كان مظلة للعراقيين كافة مِن هجير ما أتى عليهم في ما بعد. تجدني أحب الجواهري في ما قال للملك الجميل، وربّما لم أكن أولد بعد، فنحن مِن الأقوام التي لا تحتفي بالميلاد كاحتفائها وتسجيلها للوفيات، وأحبه في ما قاله مِن مديح للزعيم عبد الكريم قاسم الطّيب والنّزيه، فلم يسرق مالاً ولم يبذر فلساً (قُتل ١٩٦٣)، قال الجواهري فيه:

أعد مجدَ بغدادَ ومجدك أغلبُ
وجدد لنا عهداً وعهدك أطيب

مثلما أحببت الجواهري وهو يحتفي بميلاد الملك فيصل الثّاني، أحببته أيضاً عندما رثى مؤسس الحزب الشّيوعي العراقي يوسف سلمان يوسف (أعدم ١٩٤٩)، لأنّ الجواهري تعامل معه كحالم بغد أفضل للعراق، على طريقته إن أخطأت أو أصابت، وكان الشّعار الذي خطه لحزبه: "وطن حرٌ وشعب سعيد"، فعلينا التعامل مع قوافي الجواهري حبكة ونغمة، أما الموقف السّياسي فأقولها صراحة مال الجواهري والمواقف السّياسية والأيديولوجية، فلم يكن شيوعياً ولا قومياً ولا أيّ شيء بل كان عراقياً وكفى! قال:

سلامٌ على مثقل بالحديد
ويشمخ كالقائد الظّافرِ
كأن القيود على معصميه
مفاتيح مستقبل زاهرِ

الجواهري شاعر العراق والعرب الجواهري شاعر العراق والعرب

بهذا كنت أرد على الذين يريدون الجواهري للحظة وزمن وموقف، لا لشعره وموهبته الفذة. أنا أطرب لكلّ ما قاله الجواهري، لثوريين أو رجعيين، مثلما ما زال يُطربنا أبو الطّيب المتنبي في كلّ ما قاله بحضرة صاحب حلب سيف الدّولة الحمداني (ت ٣٥٧ هـ).

أقول: بل ما بين الجواهري ومعروف عبد الغني الرّصافي (ت ١٩٤٥) ما نقدمه سلاحاً في حربنا ضد الطائفية، فالرصافي المتهم بالطائفية يُقدم الجواهري النّجفي على نفسه، وهذه سابقة قد لم تحصل بين الشُعراء، عندما قال له، بعد أن نشر الجواهري قصيدة في الرّصافي محاولاً لفت أنظار الدّولة آنذاك لهذا الشّاعر والمثقف، يوم كان على خصومة معها: "أقول لربّ الشعر مهدي الجواهري/إلى كم تناغي بالقوافي السّواحر". وقال له أيضاً: "بك لا بي أصبح الشعر زاهرا/ وقد كنت قبل اليوم مثلك شاعرا" (الرّصافي، الأعمال الكاملة).

ولنرى كيف رثى الجواهري الرّصافي، بعد أربعة عشر سنةً مرت على وفاته، أي (١٩٥٩)، وكان قد رثاه أكثر مِن مرة: "لغز الحياة وحَيرة الألباب/ أن يستحيل الفكر محض تراب/ أن يصبح القلبُ الذكيُ مفازةً/ جرداء حتى مِن خفوق سراب/ ليت السّماءَ الأرضَ ليت مدارها/ للعبقري به مكان شهاب/ يوما له ويُقال ذاك شعاعه/ لامحض أخبار ومحض كتاب".

ومنها البيت المشهور: "ذئب ترصدني وفوق نيوبه/ دمُ أخوتي وأقاربي وصحابي" (الديوان). هذه القصيدة التي قال لي أكثر مِن شاهد عيان: عندما بدأ الجواهري ينشدها وقف الناقد المعروف علي جواد الطّاهر (ت ١٩٩٦) وطلب مِن الحضور الوقوف وترديد القصيدة مع الشّاعر، فقام الجميع مردداً بما فيهم رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم، وكان حاضراً (رسالة من الأديب عبد الحميد الرُشودي، وسمعتها مِن الصديق حامد أيوب وكان حاضراً أيضاً).

أقول: مهما كان الحال ليس لي ولا لغيري التّفريق بين الجواهري وقصائده، مهما اختلفنا معه فيها لموقف أو شعور ما، وإذا كان لي مواقف مِن شعراء آخرين، بحدود شخصياتهم لا قصائدهم، فليس لشعرهم إنما لأخلاقهم الشّخصية في إيذاء الآخرين، والانحطاط الاجتماعي، والجواهري لم يؤذ أحداً. قد يعترض على عنوان كلمتي هذه: الجواهري الناحت من الصخر والغارف من البحر، فهي خاصة بسيدي الشّعر جرير (ت ١٣٣ هـ)، والفرزدق (ت ١١٠هـ)، ولا اتفق مَن فسر نحت الفرزدق من الصخر على أنه ناظم، وغرف جرير من البحر على أنه شاعر، ما هكذا تأول الأوصاف إنما الصّخر والبحر شاعران غزيران.

أما الجواهري فليس في العصر ما يضاهيه، ربّما في وصفي هذا للجواهري تعصب لقوافيه، وأنا لا أنفي ذلك، فلم أتمالك نفسي يوم حضرت أمسيته العام ١٩٨٣ فخلعت قميصي وأخذت ألوح به اعجاباً، لذا المعذرة لقول فيه: نحت من صخر وغرف مِن بحر، ولا أراه تعصبا مؤذياً مثلما هو التعصب لعرق أو مذهب.

"21عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"
عراقيون
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى للإعلام والثقافة والفنون